المذكور عن الانتشار في اللغة السريانيّة . صنّف كتاب علم الثيّة وكتاب غراماطيق

السنة ١٦٤٩ سفّر البطرك حنّا الصفراوي الحوري مخائيل صابونا الحصروني الى رومية بسبب التثبيت واخذ صحبتهُ ﴿يوسف ابن الحوري أيوب البشرّاني﴾ وهو اخو موسى الذي تقدّم ذكرهُ استمرّ قليلًا في المدرسة وطلع قليل النفع .

(للتتمة لعدد آخر)

الامّ الشكلي وسيّدة النجاة اللبنانيّة

رواية عن أيّام الحرب في جوار جونية

للاب لويس شيخو اليسوعي

عادت زاهية الامّ الشكلي من الوادي حيث دفنت ابنها الوحيد مع ضحايا المجاعة والاوبئة فما دخلت غرفتها واقفلت بابها حتى هاج هائجها وتصاعدت زفراتها وعلا صوت نحيبها فرفعت يدها الى السماء بجزع كفيها كانهُ تهدّد خالقها ثمّ قالت بلهجة تخنقها العبرات

كلّا ! اني لا اعود الى الصلاة الى الله طالما انا في قيد الحياة ! . . . فانّهُ لقد اساء اليّ صنعاً وهيهات أن أصدّق ما يردّدهُ الكهنة على مسامعنا بقولهم انّ الله وحوم محبّ للبشر وها قد قبض روح ابني وفلذة كبدي ووحيدي سعيد الذي كان عليهِ معوّل حياتي . . في مرضهِ الاخير لم ادّخر وسعاً في استلطاف مراحم السماء لعلّهُ يحفظ لي ولدي . فذهبت صلاتي ادراج الرياح وأودى الخناق بحياة نور عيني . . آه ما كان الطفلهُ وهو في الرابعة من عمرهِ اذ كان يحدّد النظر الى أمه ويعانقني بذراعيهِ الدقيقتين . اذ كنتُ اسمع من فمهِ الحلو اسمي وبواكير كلامهِ . . وها قد مات وحال بيني وبينهُ لحدُ القبر

فكيف بعد هذا استطيع ان اؤمن بوجود اله جواد حنون عاملني بهذه القظاظة. مع كوني كنت اتوسّل اليه بدموع حارّة عند مهد ابني اذ كانت الحمّى تنهك قواهُ بان لا يحرمني وجودهُ . . فما اصاخ الى تضرّعي . . . « لا لا لن اعود اصلّي ابد الدهر »

هذا كان كلام تلك المرأة البائسة والثكلى التعيسة بعد رجوعها من دفن ابنها. أدى بها حزنها الى التجديف على خالقها . فبعد ان تحرّك لسانها بتلك العبارات المستقبحة رمت بنفسها على الكرسي الوحيد الذي كان في حجرتها واخذت تبكي بكاء مرًّا على حشاشة قلبها. وبقيت على ذلك ساعة تنتف تارة شعرها وحيناً تلطم صدرها كانها آيسة من الحياة تحاول قتل نفسها لتلحق بوحيدها

ثمّ عمدت الى فراشها البالي الذي كان في زاوية بيتها رجاء ان تذوق قليلاً من الراحة فكانت كانها افترشت القتاد او اضجعت على جمر نار فقامت متلهّفة ووقع نظرها على آلة الخياطة « سنجر » التي كانت تشتغل عليها بمحابة نهارها لتكسب بعض دريهمات تبتاع بها قليلاً من الخبز لتقتات به هي وولدها وهو مع طول شغلها لا يكاد يفي بحاجتها . فتذكّرت انها في ذلك النهار صرفها موت ابنها عن الشغل فلا يمكنها ان تحصل على ما تسدّ به رمقها

فجلست عند آلتها لتقوم بعمل يومها لولا أن كآبتها اظلمت الدنيا في عينها فلم تعد تميّز إبَر الخياطة وأبَتْ رجلها ان تساعدها على العمل لتخيط الثوب المطلوب فاستولى عليها الشلل واستمرّت دون حراك مدّة منشيًا عليها. فلمّا افاقت كان الليل مدّ رواقه على البلد فأوقدت شمعة ضئيلة تستصبح بها كانت قرب فراش ابنها سعيد فوقع نظرها على أسمال عزيزها فأخذتها لتضمّها على صدرها كما كانت تفعل بابنها في حياته فتبرّد غليلها. واذا بها وجدت عند رأس الفراش صورة العذراء مريم سيّدة النجاة المكرّمة قديماً في لبنان (انظر الصورة) تمثل والدة الله بهيئة الملكة وبين يديها طفلها الالهي كأنها تقدّمهُ خلاصاً وتعزية للبشر كانت جارتها وضعتها هناك تبرّكاً

فكان لنظر تلك الصورة تأثير في قلب زاهية ولم تعُدْ تجسر ان تفوه بمثل كلامها على انها صارت تحسد تلك الوالدة السماوية على تضمّها بابنها فقالت :

« اوّاه ! انّ هذه الامّ اسعد مني حظًّا فانها تفرح بابنها وانا فقدتُ وحيدي ! . . .

ولكن ما لي اراها تقدّم لي ابنها كأنّها تريد ان اعتاضهُ عن سعيد ابني . . وكيف ابدلهُ بهِ وليس هو ولدي ثمرة احشائي . . ويلي كنتُ محظوظةً مثلها لمّا كنت احمل بين ذراعيّ فقيد حياتي .

وبعد ان سكتت هنيهة اعادت نظرها الى الصورة وتذكّرت ما سمعتهُ مراراً من فم الراهبات التي كانت في صغرها تتردّد الى مدرستهنّ انّ البتول تدعى ايضاً الام الحزينة وقد شاهدت في الكنيسة غير مرّةٍ صورتها وسبع حربات تنفذ في قلبها بينما هي حاملة ابنها الميت في حجرها بعد ما أُنزل من عن صليبهِ فقالت :

«ويلي انّ الحزن طمس على قلبي وشوّش عقلي كيف احسد البتول على ابنها او لم تفقدهُ مثلي بعد أن رأتهُ معظّماً ممجّداً اذ قام عليهِ قوم من الاشرار بعد ان احسنَ اليهم وغمرهم بنعمهِ فحكموا عليهِ حكماً ظالماً وساقوهُ الى الموت وصلبوهُ مع اللصوص . وكانت هذه العذراء عند صليبهِ تشاهد كلّ اوجاعهِ دون ان تستطيع ان تلطّف آلامهُ الى ان برح الحياة وطُعن قلبهُ بحربة . . . وقد صبرت تلك الامّ الحزينة على كل بلاياها حتى دُعيت سلطانة الشهداء على خلاف ما فعلتُ انا اذ لم يطاوعني اصطبار ولم يُلقِني قرار حتى جدّفتُ على خالقي »

خطرت هذه الافكار الصالحة على بال تلك الامّ الثكلى فكانت اشبه بالندى على الارض القاحلة بل كالنسيم اللذّين على من لفحتهُ السّموم . وثبتت بذلك قوّةُ الدين على تلطيف اشدّ المصائب وامرّ الاوجاع

عاد الى الامّ المكروبة شيءٌ من هدوئها وسكينتها وعُمدت الى الصورة فقبّلتها ثمّ اخذت تخاطب العذراء بقولها : « نعم يا بتول اني مقرّة بانّ اوجاعك فاقت على اوجاعي وكانت دموعك أحرّ من دموعي ولكن يا امّ الله ما لبثتِ أن رأيتِ ابنك بعد قليل قائماً من الموت ظافراً . . . وانا من يردُّ لي حبيبي فانّهُ مات ومن مات فات ولن يعود الى الحياة . . . اوَاه من يُحيي لي ولدي لتقرّ بهِ عيني ويسكن جأشي !

قالت هذا واغرورقت ثانيةً عيناها بالدموع وغلب الجزَع على قلبها . . . لكنّها حدّقت بنظرها الى الصورة وكأنّها سمعت سيّدة النجاة تقول لها : « يا قليلة الايمان وهل للمسيحيّ موت ابديّ لا تعقبهُ حياة ؟ الم يَقُل ابني في انجيلهِ : أنا القيامة والحياة فمن يؤمن بي يحيى الى الابد ؟»

فشعرت زاهية لدى ذكرها هذه الآية بتعزية عظيمة فصرخت: أيكون خدعني السيد المسيح بقوله هذا! كلا اني لأعلم انهُ الحقّ الذي لا يخدع ولا ينخدع ... اني انا الجاهلة الغبيّة أفقات ابني سعيد كلهُ .. أليست روحهُ الطاهرة في دار النعيم .. اليس هو الآن في الراحة والسعادة ... كم من مرّات كررت في تلاوة دستور الايمان: «أومن بحياة الدهر الآتي» ... فان كان ابني لم يمت كلهُ فما لي ادع نفسي للكآبة واليأس ... او ليس الاسرى بي ان اتمنى الخروج من هذه دار الشقاء. فاجتمع بولدي الى منتهى الدهور .. وأنى لي ذلك أيكفري وتجديفي كما فعلتُ ... يا لها من غباوة! يا لهُ من جنون ... ربّاه اغفر لامٍ موجوعة بلبل الحزنُ عقلها وافقدها مصابُها الرشاد

قالت هذا ثمّ انطرحت عند اقدام البتول فصرخت: «حنانيك يا عذراء يا سيدة النجاة فقد صدق فيّ اسمك المبارك فنجّيتني من اليأس والقنوط ورددت لي الرجاء الصالح فاني لا انفكُّ منذ الآن عن صلاتي اليكِ والى ابنكِ الالهي .. كوني لي شفيعةً وحامية انت التي تعلمين حقّ العلم ما يصيب قلب الأمهات من الآلام بفقدان اولادهنّ! امنحيني الصبر الجميل على بلائي ... وانت أيها الطفل السماويّ الذي تشبه ولدي بلطفك وجمالك اني اعلّق عليك رجائي كي ترحمني وتلحقني عمّا قليل برّوحي وريحاني سعيد في دار الخلود فاشاهدهُ مع ملائكتك عند عرشك الازليّ»

وما انتهت من صلاتها حتى شعرت بسلام عظيم قد انعش قواها فقرّبت الصورة الى شفاهها وقبّلتها الف قبلة وكانت الدموع تنحدر من مآقيها لكنها دموع الرجاء والتسليم لارادة الله الذي يجرح فيشفي ويميت فيحيي. فلعزّته المجد ولوالدة ابنهِ اشرف السلام!

ملحق

في صورة سيدة النجاة اللبنانيّة

انّ الصورة التي رسمناها في صفحات الشرق من اجمل تصاوير السيّدة العذراء فانّ في ملامحها من الجلال والهيبة والحنان ما يأخذ بمجامع القلوب. فلا عجب أن

أثّرت في قلب تلك الامّ الثكلى وقشعت عنها بلاياها . وكذلك في صورة ابنها من الرقّة واللطف ما يحرز لهُ ثقة الناظر اليهِ والى قلبهِ المضطرم بلهيب الحبّ نحو البشر

على انّنا كنّا نودّ ان نعرف ما هو اصل هذه الصورة ومَن رسمها على هذا الشكل . أهي لأحد مشاهير المصوّرين الغربيين او ليس اصلها بالحري من الشرق كما يُستدلّ على ما كُتب على دائرتها وتحتها من الآيات السريانيّة والعربيّة وهي هذه:

ܡܪܝܡ ܒܬܘܠܬܐ ܕܐܬܬ ܒܗ ܡܫܝܚܐ ܕܐܬܝܠܕ ܡܢܗ ܠܐ ܡܝܬ . ܒܫܘܠܝܗ ܕܡܫܝܚܐ ܕܐܬܝܠܕ ܡܢ ܡܪܝܡ ܒܬܘܠܬܐ ܕܐܬܬ ܒܗ ܡܫܝܚܐ ܕܐܬܝܠܕ ܡܢ ܡܪܝܡ ܒܬܘܠܬܐ

وهذا كلامٌ وارد في صلاة الفرض للسريان في مساء يوم السبت وتفسيرهُ :

انّ موسى النبي رأى في الجبل نارًا حلّت في العلّيقة دون ان تحترق العلّيقة وقد مثّل ذلك في البتول التي سكن فيها ابن الله ولم تحترق من لهيبهِ »

وكُتب تحت الصورة: ܡܪܬܐ ܥܠܝܬܐ ܕܠܐ ܐܬܚܪܩܬ ܐܫܬܥܝ ܠܢ اعني «يا سيدة النجاة تضرّعي لاجلنا» وفي النصّ العربي :

يا عليّقة لم تحترقي في طورسينا
اشفعي في عبيدك مريم وارحمينا

فيا ليت يمكن بعض قرّائنا الكرام ان يفيدونا شيئاً عن الصورة المذكورة . وغاية ما نعلم انّ احد رهبان الموارنة اللبنانيين كان متعبّدًا لها منذ نحو خمسين سنة فوُجدت في غرفتهِ بعد وفاتهِ . وعنها اخذنا صورتنا ولا نعلم كيف اطّلع عليها احد الآباء اليسوعيين في فرنسة حضرة الاب فكتور آلِه (P. Victor Alet) فرسمها في كتابهِ المعنون «فرنسة والقلب الاقدس» (La France et le Sacre Cœur) في الصفحة ٣٠٣ من كتابهِ وشرح لهُ احدُ الملّفين «مضمون نقشها السرياني فغلط غلطاً فاحشاً في تفسير الدعاء « يا سيدة النجاة تضرعي لاجلنا» فشرحهُ في الفرنسويّة هكذا :

Mar (Seigneurs) Taschu et Zacha, Ephésiens, sous-intendants !

اعني «السادة تشو وزاخا الافسسيّون الخلناء او الوكلاء» وهو اغرب ما جاء في باب التفسير والشطط بدلًا من M.D. du Salut priez pour nous . والله الهادي الى الصواب

صورة

سيدة النجاة اللاتينية